(٧)

(المنافقون والكافرون يعصون الله ورسوله فلهم ذلّ الأولى والآخرة، والمؤمنون يطيعون الله ورسوله فلهم عزّ الأولى والآخرة)

الآيات (٤٧ ـ ٥٧)

وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

ويقولون: ويقول المنافقون(١)

وأطعنا: وأطعنا الله وأطعنا الرّسول(٢)

ثم يتولّي فريقٌ منهم: ثم تدبر كلّ طائفةٍ منهم(٣)

من بعد ذلك: من بعد ما قالوا هذا القول عن رسول الله ﷺ، وتدعو إلى المحاكمة إلى غيره خَصْمَها(٤)

مذعنين: منقادين لحكمه مقرّين به طائعين غير مكرهين. يقال منه: قد أذعن فلانٌ بحقّه إذا أقرّ به طائعاً غير مستكره وانقاد له وسلّم(٥)

أم يخافون أن يحيف: الحَيْف الميل في الحكم والجنوح إلى أحد الجانبين. أي يخافون ان يجور في حكمه(٦)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٠

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٠

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٠

(٤) تفسيرالطّبري ١٨/ ١٢٠

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٠

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «حيف» ١/ ١٨٠

سورة النّور من المدنيّ من القرآن الكريم. وقد فرض الله سبحانه وتعالى فيها الكثير من الأحكام. والآيات الكريمات تشير إلى موقف المنافقين من هذه الأحكام.

إنّ المنافقين يقولون بأفواههم إنّهم آمنوا بالله تعالى، وصدّقوا رسوله ﷺ وما أوحى الله تعالى اليه من وحي، وأطاعوا الله تعالى وأطاعوا رسوله ﷺ، ثم يُعْرِض فريقٌ منهم عن حكم الله تعالى من بعد ذلك القول الطّويل منهم والادّعاء العريض. الحقيقة أنّ أولئك المنافقين لم يكونوا مؤمنين حقّاً وقتاً من الأوقات.

وإذا دُعِي أولئك المنافقون إلى كتاب الله تعالى والى رسوله الكريم ﷺ، ليحكم بينهم بما أراده الله جلّ وعلا إذا فريقٌ منهم معرضون عن حكم الله تعالى وعن الرّسول ﷺ إلى الطّاغوت.

أمّا إذا كان الحق للمنافقين فإنّهم يأتون من أقصى الأماكن إلى الرّسول ﷺ، مذعنين، طائعين، منقادين، مستسلمين، لأنّهم يعلمون أنّ رسول الله ﷺ سوف يحكم لهم لأنّهم أصحاب حقّ.

وبقدر إقبال المنافقين إلى حكم الرّسول ﷺ حينما يكون الحقّ لهم، يكون إدبارهم عنه ﷺ حينما لا يكون الحقّ لهم. لماذا يعرض المنافقون عن النّبيّ ﷺ ويصدّون عنه صدودا حينما يقال لهم تعالوا إلى ما أنزل الله تعالى من كتاب وإلى الرّسول ﷺ ليحكم بينكم. أفي قلوبهم مرض النّفاق فلا يغادرها، أم أنهم شكّوا في دين الله تعالى الّذي أرسل به محمّداً ﷺ أم أنّهم يخافون أنّ يظلمهم الله تعالى ورسوله ﷺ بالجور في الحكم والميل إلى خصومهم. إن كلاً من هذه السّيّئات الثّلاث كفرٌ محض.

الحقيقة أنّ أولئك المنافقين هم الظالمون حقّا. لقد ظلم المنافقون أنفسهم ظلماً شديداً بإعراضهم عمّا أنزل الله تعالى من قرآنٍ كريم، وعن الرّسول العظيم ﷺ، في مجال الأحكام، وحرصهم على أن يتحاكموا إلى الطاغوت الّذي أمِروا أن يكفروا به.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

في مقابل المنافقين الّذين يصدّون عن أحكام الله تعالى صدودا، هنالك المؤمنون الّذين حينما يُدْعَوْن إلى حكم الله تعالى وإلى حكم رسوله ﷺ، بما أراه الله تعالى يبادرون إلى القول: سمعنا القول سماع قبول وأطعنا الأمر والحكم وسلّمنا تسليما. إنّ أولئك هم المفلحون بنيل كلّ مطلوب، وطرد كلّ مرهوب.

وتثنى الآية الكريمة الأخرى على الّذين يطيعون الله تعالى ورسوله ﷺ طاعةً مطلقةً فيما أمرا به ونهيا عنه ﷺ ويخافون عذاب الله تعالى باجتناب النواهي، ويتّقون نار جهنم بفعل الطّاعات، وتصفهم بأنّهم هم الفائزون حقّاً بجنّات النّعيم.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ
لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

فإن تولّوا: يجوز في الفعل: «تولّوا» أن يكون ماضيا، وأن يكون مضارعاً حذف إحدى التّاءين(١)

وحلف أولئك المنافقون المعرضون عن حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ، وأقسموا بالله تعالى العظيم، وبذلوا غاية اجتهادهم في أيمانهم، بأنّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، لو أمرتهم بالخروج جهاداً في سبيل الله تعالى ليخرجنّ إلى الجهاد فوراً. قل لهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لا تقسموا بالله تعالى العظيم بأنّكم مطيعون لله تعالى ولرسوله ﷺ وأنتم في الحقيقة غير مطيعين. طاعةٌ معروفةٌ منكم لله تعالى ولرسوله ﷺ خيرٌ لكم من هذه الأيمان غير الصادقة. إنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ بما تعملون وبما تأتون من أعمال لا تتّفق مع أيمانكم.

قل لهم يا محمّد أطيعوا الله وأطيعوا رسوله ﷺ طاعةً مطلقة. فإن تولّوا وأعرضوا فإنّما على الرّسول الكريم ماحُمِّل من أمانة التّبليغ المبين، وقد فعل، وعليكم ماحُمِّلتم من أمانة الطّاعة، وقد عصيتم. وإن تطيعوا أيها النّاس الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم تهتدوا الى الصراط المستقيم. إنّ كلّ الّذي على الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم البلاغ المبين، وقد بلّغ عليه الصّلاة والسّلام الرّسالة، وأدّى الأمانة، وكان لقومه النّاصح الأمين.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ١٨ / ١٢١ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩ / ٢٥١

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾

ليستخلفنّهم في الأرض: الخلافة النّيابة عن الغير لأسباب منها لتشريف المستخلَف. وعلى هذا الوجه استخلف الله اولياءه في الأرض(١) وهذا وعدٌ من الله لرسول ﷺ بأنّه سيجعل أمّته خلفاء الأرض، أي أئمّة النّاس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد(٢)

ومن كفر بعد ذلك: ومن كفر بهذه النّعمة(٣) وروي عن حذيفة وأبى العالية أنّه كفرٌ بالنّعمة لا كفرٌ بالله(٤)

وعد الله تعالى، ووعده الحقّ، وبشّر الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله محمّد ابن عبدالله ﷺ، وعملوا الصّالحات بأنّه جلّ وعلا سيجعلهم الخلفاء في الأرض، والحكّام فيها، وأصحاب الكلمة العليا، وأولى الأمر والنّهي في دنيا الله تعالى الواسعة العريضة، على نحو ما استخلف الله تعالى المؤمنين من أتباع النّبيّين السّابقين. وسوف يمكّن لهم في الارض دين الإسلام الّذي ارتضاه وأكمله لهم،

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «خلف» ١/٢٠٧

(٢) تفسيرابن كثير ٦/٨٣

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٢٢

(٤) تفسير الطّبري ١٨/١٢٣

وأتمّ به النعمة عليهم، وسوف يبدّلهم من بعد خوفهم وضعفهم وقلّتهم أمناً وقوّةً وكثرة. إنّ استخلاف المؤمنين في الارض، والتّمكين لهم فيها، وتبديل خوفهم أمناً، يتحقّق بإذن الله تعالى للمسلمين إذا حقّقوا شرطاً واحداً، وهو أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له حقّ العبادة، وألاّ يشركوا به عزّ وجلّ شيئا.

أمّا من كفر نعم ألله تعالى وجحد آلاءه الّتي تكفل العزّ في الدّنيا والفوز في الآخرة فإن أولئك هم الفاسقون الخارجون عن الصّراط المستقيم.

وتنصّ الآية الكريمة الأخرى على ثلاثة من مظاهر عبادة الله تعالى وحده لا شريك له كي ينال المسلمون رحمة الله تعالى، وهي إقامة الصلاة، عماد الدّين، وأهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين، وإيتاء الزّكاة، وهي أهمّ أركان الإسلام الخمسة في مجال المال ودفع حقّ الله تعالى فيه للفئات الثّمان الّتي تستحقّ الزّكاة، وطاعة الرّسول الكريم ﷺ طاعةً مطلقة، لأنّ المسلمين مأمورون بأن يطيعوا الرّسول الكريم ﷺ طاعةً مطلقة، وبأن يتبّعوه عليه الصلاة والسلام كي يحبّهم جلّ وعلا.

وإنّ المسلمين في فجر الإسلام ولقرونٍ عدّة، حينما طبّقوا هذا الهدي الرّبّانيّ صدقهم الله تعالى وعده فكانوا بحقٍّ سادة الدّنيا في جميع المجالات الإيمانيّة والحضارية. وحينما أخلف المسلمون الوعد وخانوا العهد أصبحوا اليوم في ذيل قائمة الأمم. ولا يخفى الحال الأليم للمسلمين اليوم على كلّ إنسان.

وإنّ المسلمين يستطيعون بإذن الله تعالى أن يعيدوا مجدهم الغابر حينما يحقّقون الشّروط في الآية الكريمة. ومن البيّن أنّ هذه الشّروط هي أهمّ نعوت خير أمّة أخرجت للنّاس، وليس لمصلحتها الشخصيّة ومنفعتها الذّاتيّة. أنّ من أهمّ نعوت هذه الأمة المسلمة لله تعالى ربّ العالمين أنّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله تعالى وتفرده عزّ وجلّ بالعبادة.

ولا ننسى أنّ خير أمّة أخرجت للنّاس حينما تدحرجت من عليائها لأنّها خانت الأمانة حلّت محلّها أممٌ أقلّ ما يقال في حقها إنّها لا تأمر بالمعروف، ولا

تنهى عن المنكر، ولا تفرد الله تعالى وحده لاشريك له بالعبادة.

بقى علينا أن نقول: إنّ الفرصة بإذن الله تعالى جدّ مواتية لخير أمّة أخرجت للنّاس كي يتحقّق وعد الله تعالى لها شريطة تحقيق الشّروط المطلوبة منها، والمقوّمات الّتي ينبغي توافرها فيها. أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله تعالى وحده لاشريك له، بأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتطيع الله تعالى وتطيع رسوله ﷺ طاعة مطلقة. إنّ على الأمّة المسلمة أنّ تتوكّل على الله تعالى، وتعمل، وتجاهد في الله تعالى حقّ الجهاد كي يعود لها بإذن الله تعالى مجدها الغابر، وقد قال عزّ من قائل(١): ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين﴾.

(١) سورة العنكبوت ٦٩

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

لا تحسبنّ الّذين كفروا معجزين في الأرض : لا تحسبنّ يا محمّد الّذين كفروا بالله معجزيه في الأرض إذا أراد إهلاكهم(١)

لا تحسبنّ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وأيّها المسلم لله تعالى ربّ العالمين، ولا تظنّنّ الّذين كفروا بالله تعالى معجزيه في الأرض إذا أراد بهم جلّ وعلا سوءا. إن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل. وإنّ مأوى الكافرين يوم القيامة النّار، وبئس المصير جهنّم ونار السّعير.

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٢٣

(٨)
(مِنْ آداب أنواعٍ من الاستئذان)
الآيات (٥٨-٦٤)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ
وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

ليستأذنكم الّذين ملكت أيمانكم: ليستأذنكم في الدّخول عليكم عبيدكم، وإماؤكم(١)

والّذين لم يبلغوا الحلم منكم: والّذين لم يحتلموا من أحراركم(٢)

ثلاث مرّات: ثلاث مرّاتٍ في ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم(٣)

ومن بعد صلاة العشاء: قال ابن جريج، قال لي عطاء بن أبي رباح: فذلك على كلّ صغيرٍ وصغيرةٍ أنّ يستأذن كما قال: ﴿ثلاث مرّات. من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظّهيرة ومن بعد صلاة العشاء﴾ قالوا هي العَتَمة. قلت: فإذا وضعوا ثيابهم بعد العَتَمة استأذنوا عليهم حتّى يصبحوا؟ قال: نعم. قلت لعطاء: هل استئذانهم إلاّ عند وضع النّاس ثيابهم؟ قال: لا(٤)

ثلاث عوراتٍ لكم: لأنكم تضعون فيها ثيابكم وتخلون بأهليكم(٥)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٤

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٤

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٤

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٤ وعَتَمَةُ اللّيل: ظلامُ أوّله بعد زوال نور الشّفق. المعجم الوسيط «عتم»

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢٥

ليس عـليكم ولا عليـهم جناحٌ بعدهـنّ: ليس عليـكم معشر أرباب الـبيوت والمساكن، ولا عليهـم، يعني ولا على الّذين ملكت أيمانكـم من الرّجال والنّساء، والّذين لم يبـلغوا الحلم من أولادكم الصّـغار، حرجٌ ولا إثمٌ بعدهنّ، يعـنى بعد العورات الثّـلاث. والهاء والنون في قوله: ﴿بـعدهنّ﴾ عائدتان علـى الثّلاث من قوله: ﴿ثـلاث عوراتٍ لكم﴾(١) إنّـه لا حرج ولا جناح عـلى النّاس أن يـدخل عليهم مماليكهم البالغونَ وصبيانهم الصّغار بغير إذن بعد هذه الأوقات الثلاثة(٢)

طوّافون عليكم : هـؤلاء المماليك والصّبيان الصّغار هم طوّافـون عليكم أيّها النّاس. ويـعني بالطّوافـين أنّهم يدخلون ويـخرجون على مـواليهم واقربائـهم في منازلهم، غدوةً وعشيةً بغير إذن(٣) للخدمة(٤)

بعضكم على بعض: بعضكم طائفٌ على بعض(٥)

كذلك يبيّن الله لكم الآيات: كما بيّنـت لكم أيّها الناس أحكام الاستئذان في هذه الآية، كذلك يبيّن الله لكم جميع أعلامه وأدلّته وشرائع دينه(٦)

يا أيها الّـذين آمنوا بالله ورسوله لـيستأذنكم الّذين مـلكت أيمانكم من الـعبيد والإماء، والّذين لم يبلغوا الاحتلام من صبيانكم الأحرار ولم يبلغوا مبلغ الرّجال ثلاث مرّات في ثلاثة أوقات، تتخفّفون فيهـا من بعض ثيابكم للنّوم والرّاحة. من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظّهيرة في وقت القيلولة، ومن صلاة العشـاء الآخرة. ثلاث عورات لـكم، وثلاثة أوقـاتٍ لكـم تتخفّـفون فيهـا من ثيابكم، وقد تبـدو فيها عوراتكم. ليس عليكم بعـد هذه الأوقات الثلاثة حرجٌ أن

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٢٥

(٢) انظر تفسير الطّبري ١٨/١٢٥

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٤) الجلالين

(٥) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/٢٥٦

(٦) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

تأذنوا لهم بالدّخول عليكم دون إذن، وليس عليهم بعد هذه الأوقات الثلاثة حرج أن يدخلوا عليكم دون إذن. هم طوّافون عليكم، داخلون وخارجون لخدمتكم، بعضكم طائفٌ على بعضٍ لخدمته. وكما بيّن عزّ وجلّ لكم وحُكْمَه في هذا النّوع من الاستئذان يبيّن لكم آياته البيّنات، وحججه الواضحات. والله تعالى عليمٌ بما فيه صلاح عباده، حكيمٌ في كلّ حكم وتدبير وتقدير.

وحكم ما ماملكت أيماننا حكمٌ واحد سواءٌ فيه حكم كبارهم وصغارهم في أنّ الإذن عليهم في الساعات الثّلاث(١) المذكورة في الآية الكريمة، وليس الأمر كذلك بشأن الكبار الأحرار.

وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

منكم : من أحراركم(٢) من أولادكم واقربائكم(٣)

الحلم : الاحتلام واحتلموا(٤)

فليستأذنوا: فلا يدخلوا عليكم في وقتٍ من الأوقات إلاّ باذن، لا في أوقات العورات الثّلاث ولا في غيرها(٥)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٤) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٥) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

كما استأذن الّذين من قبلهم: كما استأذن الكبار من ولد الرّجل وأقربائه الأحرار(١)

واذا بلغ الأطفال الأحرار من أولادكم وأقربائكم الحلم واحتلموا وبلغوا مبلغ الرّجال فليستأذنوا عليكم في كلّ الأوقات، كما استأذن عليكم الّذين من قبلهم من الكبار الأحرار. هكذا يبيّن الله تعالى لكم آياته البيّنات وحججه الواضحات، والله عليمٌ بما فيه صلاح العباد، حكيمٌ في شرعه وتدبيره وحكمه.

وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

والقواعد من النّساء: واللّواتي قد قعدن عن الولد من الكبر من النّساء، فلا يحضن ولا يلدن، واحدتهنّ قاعد(٢)

واللاّتي لايرجون نكاحاً: اللاّتي قد يئسن من البعولة فلا يطمعن في الأزواج(٣) وبلغن ألاّ يكون لهنّ في الرّجال حاجة، ولا للرّجال فيهنّ حاجة(٤) ويرجون فعل مضارع مبنيّ على السّكون. والنون اسم ضمير مبنىّ على الفتح في محل رفع فاعل(٥)

فليس عليهنّ جناح: فليس عليهنّ حرجٌ ولا إثم (٦)

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦
(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦
(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦
(٤) انظر تفسير الطّبري ١٨/١٢٧
(٥) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/٢٥٧
(٦) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

أن يضعن ثيابهنّ: يعني جلابيبهنّ وهي القناع الّذي يكون فوق الخمار، والرّداء الّذي يكون فوق الثّياب. لا حرج عليهنّ أن يضعن ذلك عند المحارم من الرّجال وغير المحارم من الغرباء(١) عن ابن عبّاس: هي المرأة لا جناح عليها أن تجلس في بيتها بدرعٍ وخمارٍ وتضع عنها الجلباب ما لم تتبرّج(٢)

غير متبرّجات بزينة: اذا لم يردن بوضع ذلك عنهنّ أن يبدين ما عليهنّ من الزّينة للرّجال. والتّبرّج هو أن تظهر المرأة من محاسنها ماينبغي لها أن تستره(٣) والبروج: القصور. الواحد بُرْج. وبه سمّي بروج النّجوم لمنازلها المختصّة بها(٤) وثوبٌ مبرَّج صوّرت عليه بروج، فاعْتُبِرَ حُسْنُه فقيل: تبرّجت المرأة، أي تشبّهت به في إظهار المحاسن(٥)

وأن يستعففن خيرٌ لهنّ: وإن تعفّفن عن وضع جلابيبهنّ وأرديتهنّ فيلبسنها خيرٌ لهنّ من أن يضعنها(٦)

وكبيرات السّنّ من النساء اللّاتي قعدن عن أن يحضن ويلدن اللاّتي لا يرجون نكاحاً ولا يردن زواجاً، لرغبتهنّ عن الرّجال ورغبة الرّجال عنهنّ، لا حرج عليهنّ ولا إثم أن يضعن جلابيبهنّ وأرديتهنّ في بيوتهنّ عند المحارم من الرّجال وغيرالمحارم من الغرباء، شريطة ألاّ يفعلن ذلك من أجل التّبرّج وإظهار الزّينة الّتي ينبغي سترها عن الرّجال. وإن تعفّفن عن وضع الجلابيب والأردية فلبسنهاوارتدينها فإنّ ذلك خيرٌ لهنّ. والله تعالى سميعٌ لكل قول، عليمٌ بكلّ نيّةٍ وفعل، مجازٍ على كلّ ذلك.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٢٦

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٢٨

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «برج» ١/٥٢

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «برج» ١/٥٣

(٦) تفسير الطّبري ١٨/١٢٨

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا
مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ
أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا
جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ
تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

حرج : ضيق(١)

أوما ملكتم مفاتحه: المفاتح جمع المِفْتح الّذي يفتح به (٢) والمِفْتح والمفتاح مايُفْتَح به وجمعه مفاتيح ومفاتح(٣)

أوصديقكم: من صدقكم في مودّته(٤)

جميعاً : مجتمعين(٥)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٠

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣١

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فتح» ٢/ ٤٨٠

(٤) الجلالين

(٥) الجلالين

أو أشتاتاً: متفرّقين جمع شَتّ(١)

فاذا دخلتم بيوتاً: لكم لا أهل بها(٢)

فسلّموا على أنفسكم: أي قولوا: السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين، فإنّ الملائكة تردّ عليكم. وإن كان بها أهل فسلّموا عليهم(٣)

تحيّة: تحيّون أنفسكم تحيّةً(٤) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه(٥)

من عند الله: السّلام تحيّة(٦)

مباركةً طيّبة: لما فيها من الأجر الجزيل والثّواب العظيم(٧)

ليس على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض ولا عليكم أيّها النّاس حرجٌ وضيقٌ أن تأكلوا من بيوتكم، أو بيوت آبائكم، أو بيوت أمّهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عمّاتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم، أو ما ملكتم مفاتيحه من البيوت، أو بيوت أصدقائكم الّذين يصدقونكم الودّ. ليس عليكم جناحٌ ولا ضيق أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت من ذُكر ماداموا راضين عن ذلك وإن لم يكونوا حاضرين. وليس عليكم جناحٌ ولا حرجٌ أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين «وإن كان الأكل مع الجماعة افضل وأبرك»(٨) فإذا دخلتم بيوتاً لكم لا أهل بها فسلّموا على أنفسكم تحيّةً من عند الله تعالى وبإذنه مباركةً طيبةً لجزيل ثوابها وعظيم أجرها بأن تقولوا: السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين، فإنّ الملائكة تردّ عليكم. وإن كان بها

(١) الجلالين وتفسير الطّبري ٨/ ١٣١ ومفردات الرّاغب الأصفهاني: «شتت» ١/ ٣٣٧

(٢) الجلالين

(٣) الجلالين وتفسير الطّبري ١٨/ ١٣٢ و١٣٣ وتفسير ابن كثير ٦/ ٩٤ و٩٥

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٣

(٥) الجدول في اعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٦٠

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٣

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٣

(٨) تفسير ابن كثير ٧/ ٩٤

أهلٌ فسلّموا عليهم..

كذلك يبيّن الله لكم آياته البيّنات، وحكمه الباهرات، لعلكم تعقلون عن الله تعالى آياته وحُججه وحِكَمَه.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

وإذا كانوا معه: وإذا كانوا مع رسول الله ﷺ (١)

على أمرٍ جامع: على أمر يجمع جميعهم من حربٍ حضرت، أو صلاةٍ اجتمع لها أو تشاورٍ في أمرٍ نزل(٢)

لبعض شأنهم: لبعض حاجاتهم الّتي تعرض لهم(٣)

إنّما المؤمنون حقّاً هم الّذين آمنوا بالله تعالى وبرسوله ﷺ وإذا كانوا معه ﷺ، على أمرٍ يجمعهم أجمعين، من صلاة جمعة، أو عيد، أو جماعة، أو مشورة، وما إلى ذلك، لم ينصرفوا حتّى يستأذنوه عليه الصّلاة والسّلام. إنّ الّذين يستأذنونك، أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم، في الانصراف، أولئك الّذين

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٣٣

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٣٣

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٣٤

يؤمنون بالله تعالى وبرسوله ﷺ. فإذا استأذنوك يامحمّد لبعض حاجاتهم الّتي تعرض لهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله تعالى. إنّ الله تعالى غفورٌ يستر ذنب من أذنب، رحيمٌ يقبل توبة من تاب وأناب بصدق.

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً: عن ابن عبّاس: كانوا يقولون يا محمّد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك، إعظاماً لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه. قال: فقالوا يارسول الله يانبيّ الله. وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير(١)

قد : للتّحقيق(٢)

لواذا: تستّراً وخفية منه(٣) واللّواذ مصدر لاوذت بفلان ملاوذةً ولواذاً(٤) واللّواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض يستتر هذا بهذا وهذا بهذا(٥)

فتنة : الفتنة ههنا الكفر(٦)

لا تجعلوا أيّها المؤمنون نداء المصطفى ﷺ بينكم كنداء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا يا محمّد، يا أبا القاسم، ولكن قولوا يارسول الله، ويانبيّ الله، تفخيماً له

(١) تفسيرابن كثير ٦/ ٩٦
(٢) الجلالين وتفسير ابن كثير ٦/ ٩٨
(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٥
(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٥
(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٥
(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٥

ﷺ وتعظيماً. إنّ الله سبحانه وتعالى ليعلم الّذين يتسلّلون منكم لواذاً وينسلّون مستتراً بعضهم ببعض كيلا يراهم المصطفى ﷺ. فليحذر الّذين ينصرفون دون إذنه منه عليه الصّلاة والسّلام ويُدْبِرون عنه خفيةً أن تصيبهم من الله تعالى فتنةٌ بأنْ يطبع جلّ وعلا على قلوبهم فيرتدّوا كافرين، أو أن يصبهم منه عزّ وجلّ عذابٌ أليمٌ في الدّنيا قبل الآخرة.

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

حقّاً لله تعالى ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيدا. يعلم جلّ وعلا ما أنتم عليه من إيمان ونفاق، استئذان وانسلال. ويوم يرجع الخلائق إليه يوم القيامة ينبّئهم بما عملوا ويجازيهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ. والله تعالى بكلّ شيء عليم، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمين. والحمد لله ربّ العالمين.

مكة المكرّمة
عشيّة يوم الأربعاء ٣٠/٩/١٤١٨هـ
الموافق ٢٨/١/١٩٩٨م

ثالثاً
سورة الفرقان
حتّى نهاية الجزء الثامن عشر

سُورَةُ الفُرقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا
(١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ
افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا
(٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ
لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ

كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ
كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ
أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا

نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

بين يدي التفسير

(١)

(الله تعالى هو الّذي نَزّل الفرقان على عبده، وهو خالق كلّ شيء، فينبغي إفراده بالعبادة)

الآيات (١ ـ ٦)

تبارك وتعالى وتمجّد الله تعالى الّذي نزّل القرآن الكريم الّذي يفرق بين الحقّ والباطل، ويفصل بين الحلال والحرام، على عبده وحبيبه محمّد ﷺ، ليكون عليه الصّلاة والسّلام، للعالمين الإنس والجنّ نذيراً للكافرين والمكذّبين والعاصين بين يدي عذاب شديد. إنّه الله تعالى الّذي له ملك السّماوات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ، ولم يتّخذ ولداً ولا صاحبة، ولم يكن له شريكٌ في ملكه، لأنّه عزّ وجلّ هو الغنيّ الكبير المتعال. وخلق جلّ وعلا كلّ شيءٍ، وقدّره تقديراً، وهيّأه للعمل الّذي خُلِق من أجله، والدّور المنوط به. واتّخذ الكافرون من دونه عزّ وجلّ آلهةً عاجزةً لا يخلقون شيئاً ولو جناح بعوضة، وهم قد خلقهم الله تعالى، ولا يملكون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم دفع ضرّ، ولا جلب نفع، ولا يملكون إماتة حيّ، ولا إحياء ميّت ولا بَعْثَه. وقال الكافرون كذلك ما هذا القرآن إلاّ كذبٌ وبهتانٌ اختلقه محمّد وأعانه عليه قومٌ آخرون، فقد جاءوا وارتكبوا ظلماً للنّبيّ ﷺ ولأنفسهم بزعمهم أنّ النّبيّ ﷺ اختلق القرآن، وجاءوا وأدلوا بشهادة الزّور عن عمدٍ وسابق إصرار بزعمهم أنّ قوماً آخرين من جنس الغلام الأعجميّ الرّوميّ الحدّاد قد أعانوه ﷺ على افتراء القرآن الكريم. وقال الكافرون كذلك إنّ القرآن أساطير السّابقين وأكاذيبهم طلب محمّدٌ أن تُكْتَب له فهي تقرأ عليه صباحاً ومساءً. قل يا محمّد وقل أيّها المؤمن : قد أنزل القرآن الكريم الله تعالى الّذي يعلم السّرّ والغيب في السّماوات والأرض. إنّ في القرآن الكريم أسراراً على غرار أسرار السّماوات والأرض، وإنّ الله تعالى كان دائماً وأبداً غفوراً لمن استغفر الله تعالى، رحيماً لمن

تاب وأناب بقبول التّوبة. إنّ على كفّار مكّة ومن شاكلهم أن يهتبلوا فترة الإمهال وأن يستغفروا الله تعالى ويتوبوا إليه توبةً نصوحا.

وإذا كانت الآية الكريمة الأولى قد تضمّنت موضوعات السّورة الكريمة، فإنّ في هذا القسم قد جاءت ثلاث فواصل هي الرّاء واللّام والميم، مرتّبةً وفق هذا النّسق الّذي يومىء إلى ترتيبها في السّورة الكريمة من حيث الكثرة وفق هذا النّسق ذاته. لقد جاءت فاصلة الرّاء في ثلاثٍ وأربعين آية من سبع وسبعين آية. وجاءت فاصلة اللّام في سبع عشرة آية. وجاءت فاصلة الميم في أربع عشرة آية. كما جاءت فاصلة النّون في آيتين والباء في آية واحدة(١).

وممّا يلاحظ بشأن هذا القسم أنّ اتّهام كفّار مكّة للنّبيّ ﷺ بأنّه افترى القرآن الكريم وأعانه على ذلك قومٌ آخرون قد تمّ دحضه على الفور في الآية الكريمة ذاتها. كما يلاحظ أنّ اتّهامهم للنّبيّ ﷺ بأنّه أتى في القرآن الكريم بأساطير الأوّلين قد تمّ دحضه على الفور كذلك في الآية الكريمة التّالية. وسوف نتبيّن أنّ السّورة الكريمة في دحضها لاعتراضات الكافرين تردّ على الفور أحياناً، وعلى التّراخي أحياناً.

(٢)

(اعتراضاتٌ للكافرين وتفنيدٌ لها، وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين)

الآيات (٧ ـ ٢٠)

إذا كان القرآن الكريم محور القسم الأوّل وهدف اتّهامات الكافرين، فإنّ المصطفى ﷺ محور هذا القسم الثّاني وهدف اعتراضات الكافرين واقتراحاتهم.

---

(١) انظر هنا تأمّلات في سورة الفرقان للمؤلّف ص ٢٩ الطّبعة الثانية، مكّة المكرّمة، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م

وقد عرض القرآن الكريم في أسلوبه المعجز اعتراضات الكافرين، كما كرّ عليها بالنّقض، في أسلوبه المعجز كذلك، على الفور أو على التّراخي. وقد أعيد ترتيب الاعتراضات في أثناء الرّدّ عليها لحكمة جليلة يمكن إيجازها في القول بأنّ الرّدّ على الاعتراضات قدّم الأقرب تناولاً والأوضح عَواراً. إنّ كفّار مكّة قالوا ما لهذا الرّسول محمّد يأكل الطّعام وبالتّالي يضطرّ للتّخلّص من فضلاته ويمشي في الأسواق طلباً للرّزق. إنّ المفروض في الرّسول حسب زعمهم أن يكون ملكاً، أو على الأقلّ أن يكون معه ملكٌ يصدّقه ويكون معه نذيرا. وكيلا يضطرّ الرّسول للمشي في الأسواق ينبغي أن يُلْقَى إليه من السّماء كنزٌ ينفق منه، أو أن تكون له جنّة يأكل منها. وقد جاء الرّدّ في الآية الكريمة العاشرة الّتي تقول : تكاثر خير الله تعالى الّذي إن شاء جعل لك يا محمّد في هذه الحياة الأولى خيراً ممّا اقترح الكافرون، بأن تكون لك جنّات تجرى من تحتها الأنهار، وتكون لك القصور المَشيدَة. كما جاء الرّدّ في الآية الكريمة العشرين الّتي تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى ما أرسل قبل محمّد ﷺ من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق. فليس محمّد ﷺ بدعاً من الرّسل.

ولمّا كان ربّ العزّة والجلال قد جعل بعضنا فتنةً واختباراً لبعضنا الآخر فإنّ علينا إذن أن نصبر، وكان الله تعالى هو البصير.دائماً. وفي هذه الآية الكريمة تسليةٌ للنّبيّ ﷺ والمؤمنين.

وبشأن الاقتراح بنزول الملائكة مع النّبيّ ﷺ يكون الرّدّ بطريق غير مباشرٍ في أوّل الجزء التّاسع عشر وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنْزِلَ علينا الملائكةُ أو نرى ربّنا. لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حِجْراً محجورا﴾.

ومن اعتراضات الكافرين وافتراءاتهم الزّعم بأن محمّداً ﷺ ليس سوى رجلٍ مسحورٍ مغلوبٍ على عقله بقوىً خفيّة وشرّيرة. ومن جنس هذا الافتراء الزّعم بأنّ مَثَلَ محمّد ﷺ مثلُ السّاحر والكاهن والشّاعر والكاذب والمجنون. إنّ الرّدّ على

هذه الافتراءات يكون على الفور في الآية الكريمة التّالية : ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ وهكذا يتبيّن أنّ بعض الرّدود تكون على الفور وبعضها على التّراخي. وفي كلّ الأحوال يرضى النّظم القرآنيّ كلّ عقلٍ بفصوص حِكَمه، ويشبع كلّ نفسٍ بتدفّق معانيه، ويطرب كل أذنٍ بتلاؤم أصواته. وهكذا تشتمل أولى آيات القسم على اعتراض. وهكذا تشترك آخر آيات القسم في الرّدّ على هذين الاعتراضين. وبين هاتين الآيتين الكريمتين تأتي الاعتراضات والرّدود مبثوثة، في طريقةٍ تخلب اللّبّ، وتأسر القلب، وتملك الأذن.

ويبيّن السّياق حقيقةً أمر الكافرين ومصيرهم في العديد من الآيات. الحقيقة أنّ الكافرين كذّبوا بالسّاعة. وقد أعد الله تعالى لمن كذّب بالسّاعة ناراً متأجّجة. إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا صوت حنقها عليهم، وزفير صدرها الحاقد عليهم. وإذا ألقوا في المكان الضّيّق المخصّص لهم مقرّنين في الأغلال نادوا واهلاكاه واثبوراه. ويقال لهم تبكيتاً وتأنيباً لا تدعوا الهلاك مرّةً واحدةً فقط بل ادعوه مرّاتٍ كثيرة فلن ينفعكم الدّعاء. قل لهم يا محمّد: أذلك العذاب المقيم خيرٌ أم جنّة الخلد الّتي وعدها الله تعالى المتّقين، كانت لهم جزاء حسناتهم وعاقبة صبرهم. لهم في الجنّة ما يشاءون خالدين. كان ذلك النّعيم الّذي وعد به الكريم جلّ وعلا عباده وعداً من حقّ مِنْ وعده به الكريم جلّ وعلا أن يسأله إيّاه. وهذا النّعيم المقيم يتحقّق أصلاً من الكريم جلّ وعلا دون سؤالٍ ولا طلبٍ. وحين يحشرهم يوم القيامة وما يعبدون من دون الله تعالى يقول عزّ وجلّ للمعبودين كالملائكة وعيسى ومن إليهم أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلّوا السّبيل. ولمّا كان ربّ العزّة أعلم بما سأل وكان المعبودون برءاء فإنّهم في جوابهم يبدأون بتنزيه الله تعالى عمّا ألحقه به عزّ وجلّ الظّالمون ممّا لا يليق بعظمته، ويقرّرون أنّهم ما كان يصحّ لهم أن يتّخذوا من دون الله تعالى شركاء. ولكنّه جلّ وعلا متّع الكافرين وآباءهم حتّى نسوا الذّكر الحكيم وكلّ ما من شأنه أن يذكّرهم بالله تعالى وكانوا قوماً هَلْكَى. وهكذا يكذّب المعبودون العابدين الّذين لا يستطيعون صرف

عذاب الله تعالى عنهم ولا نصر أنفسهم. وهكذا كلّ من يشرك يذيقه الله تعالى عذاباً كبيراً. ويُختَم القسم بالآية الكريمة الّتي قلنا إنّها تردّ على اعتراضين للكافرين في أولى آيات القسم، أن يأكل الرّسول الكريم الطّعام وأن يمشي في الأسواق. وهكذا يرضى القرآن الكريم كلّ عقلٍ بفصوص حكمه، ويشبع كلّ نفسٍ بلذيذ نظمه، ويطرب كلّ أذن بتلاؤم أصواته.

التّفسير

(١)
(الله تعالى هو الّذي نزّل الفرقان على عبده، وهو خالق كلّ شيء، فينبغي إفراده بالعبادة)
الآيات (١ ـ ٦)

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾

تبارك : إذا كان تبارك بمعنى تمجّد أو تعظّم أو تعالى وما إلى ذلك فإنّه يكون صفة ذات، أي ذو المجد والعظمة والتّعالي. وإذا كان من البركة، أي التّزايد في الخير من قِبَله فإنه يكون صفة فعل، أي زاد خيره وتكاثر عطاؤه(١).

الّذي نزّل : نزّل فعّل من التّكرّر والتّكثّر(٢).

الفرقان : القرآن الّذي يفرق بين الحقّ والباطل، والهدى والضّلال، والغيّ والرّشاد، والحلال والحرام(٣).

على عبده : محمّد ﷺ(٤) وهذه صفة مدح وثناء، لأنّه أضافه إلى عبوديّته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، وفي مقام الدّعوة إليه(٥).

ليكون للعالمين : ليكون محمّد لجميع الجنّ والإنس الّذين بعثه الله إليهم داعياً إليه(٦).

نذيرا : منذراً ينذرهم عقابه ويخوّفهم عذابه إن لم يوحّدوه ولم يخلصوا له العبادة ويخلعوا كلّ ما دونه من الآلهة والأوثان(٧).

تعالى وتعظّم وتمجّد الله جلّ وعلا الّذي نزّل القرآن الكريم الّذي يفرق بين الحقّ والباطل، ويفصل بين الحرام والحلال، مفرّقاً في بضعٍ وعشرين سنة، على

---

(١) انظر البحر المحيط ٦/ ٤٨٠ والكشّاف ٢/ ٣٩٩

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٠٠

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٠٠

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٦

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٠٠

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٦

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٦

عبده المصطفى، وحبيبه المجتبى، محمّد بن عبدالله ﷺ، ليكون عليه الصّلاة والسّلام، للعالمين، الثّقلين الإنس والجنّ، نذيراً بين يدي عذابٍ شديدٍ، لمن عصى الله تعالى، ولم يخلص العبادة له جلّ وعلا، ولم يفرده بالعبادة وحده دون سواه عزّ وجلّ.

وممّا يلاحظ على الآية الكريمة ما يلي:

أ ـ تشير الآية الكريمة إلى الطّريقة الفريدة الّتي نزل فيها القرآن الكريم مفرّقاً في حين نزلت سائر الكتب السّماويّة الأخرى جملةً واحدة.

ب ـ في هذا الموقف الشّريف، موقف نزول أشرف الكتب السّماويّة على خير البريّة ﷺ يُنْعَتُ عليه الصّلاة والسّلام بأنّه عبد الله تعالى، كي يكون الفَرْق والفصل واضحاً منذ البداية بين مقام العبوديّة الّذي لا يتجاوزه خير البريّةَ ﷺ ومن باب الأحرى سواه، وبين مقام الألوهيّة. كما يُنْعَت عليه الصّلاة والسّلام بهذا النّعت في مقامين شريفين آخرين. أوّلهما الإسراء، وقد قال عزّ من قائل(١): ﴿سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حوله لنريه من آياتنا. إنّه هو السّميع البصير﴾ وآخرهما الدّعاء، وقد قال عزّ من قائل(٢): ﴿وأنّه لمّا قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدا﴾ والمراد الجنّ الّذين ازدحموا عليه ﷺ حرصاً على سماع القرآن الكريم يرتّله النّبيّ ﷺ وهو يصلّى الصّبح.

ج ـ تتضمّن الآية الكريمة الموضوعات الّتي سوف تتحدّث عنها السّورة الكريمة، وهي توحيد الله تعالى، والقرآن الكريم، ومحمّد ﷺ، عبد الله ورسوله، والعالمون بنوعيهم، الّذين لم ينفع معهم الإنذار، والّذين نفع معهم الإنذار، وقد تجلّت صفوتهم في عباد الرّحمن الّذين تحدّثت عنهم السّورة الكريمة في نهايتها.

---

(١) سورة الإسراء ١

(٢) سورة الجنّ ١٩

د ـ في أولى آيات سورة الفرقان الكريمة المكّيّة تتأكّد عالميّة دعوة محمّد ﷺ إحدى النّعم الخمس ـ أو السّتّ ـ الّتي خصّ الله تعالى بها محمّداً ﷺ ولم يعطهنّ الله تعالى أحداً من الأنبياء من قبل(١).

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

وخلق كلّ شيء فقدّره تقديرا : فسوّى كلّ ما خلق وهيّأه لما يصلح له فلا خلل فيه ولا تفاوت(٢).

الله تعالى الّذي نزّل القرآن الكريم على محمّدٍ ﷺ هو الله تعالى الّذي له مُلك السّماوات والأرض وما فيهنّ ومن فيهنّ، فله وحده دون سواه حقّ التّصرّف فيهما. والله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد لم يتّخذ ولداً ولا صاحبةً ولم يكن له شريكٌ في الملك، لأنّه هو الغنيّ الكبير المتعال. وقد نفى السّياق الولد أوّلاً، لأنّ العادة جرت في حقّنا نحن البشر أن نستعين بأولادنا أوّلاً، كما نفى السّياق الشّريك آخراً، لأنّ العادة جرت في حقّنا نحن البشر أن نستعين بالشّريك لاحقا. وكما كان لله تعالى المُلك والأمر كان له الخلق. فالله سبحانه وتعالى خلق كلّ شيءٍ في هذا الكون، فقدّره تقديرا، وهيّأه لما يصلح له، ووظّفه للدّور المنوط به، والعمل الّذي خُلق من أجله.

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ تفسير ابن كثير ٦/ ١٠١ وصحيح مسلم بشرح الإمام النّووي ٥/ ٣ و٥ وفتح الباري ١/ ٤٣٥ حديث رقم ٣٣٥

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٦

وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾

الله تعالى الّذي له الخَلْق والمُلك والأمر أمر بأن يُعْبَدَ عزّ وجلّ وحده لا شريك له. والعجيب في أمر المشركين أنّهم أشركوا مع الله تعالى في العبادة سواه، والعجيب في أمرهم كذلك أنّهم يعبدون من دون الله تعالى آلهةً غايةً في العجز والضّعف وقلّة الحيلة. إنّها آلهةٌ لا تخلق شيئاً ولا جناح بعوضة، والله تعالى هو الّذي خلقها. وإنّها آلهةٌ لا تملك لنفسها فضلاً عن غيرها دفع ضرّ، ولا جلب نفع، ولا تملك إماتة حيّ، ولا إحياء ميّت، ولا إحياءه وبعثه بعد الموت.

ومن بديع نظم الآية الكريمة تقديم الضّرّ على النفع، والموت على الحياة والنّشور بمعنى البعث.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

إن هذا : ما هذا القرآن الّذي جاءنا به محمّد(١).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨ / ١٣٧

إلاّ إفك : إلاّ كذبٌ وبهتان(١).

افتراه : اختلقه وتخرّصه بقوله(٢).

وزورا: كذباً محصنا. والزّور أصله تحسين الباطل(٣).

أساطير الأوّلين : الأساطير الأكاذيب(٤) والأحاديث (٥)جمع أسطورة نحو أُرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث(٦).

اكتتبها : انتسخها(٧).

فهي تُمْلى عليه : فهذه الأساطير تُقْرأ عليه، من قولهم : أمليت عليك الكتاب وأمللت(٨).

بكرةً وأصيلا : غدوةً وعشيّا(٩).

وقال كفّار مكّة في المقام الأول ما هذا القرآن الّذي جاء به محمّدٌ إلاّ كذبٌ وبهتان، وأعانه على هذا الكذب والبهتان قومٌ آخرون، من جنس ذلك الغلام الرّوميّ الأعجميّ الحدّاد الّذي إذا تكلّم العربيّة لا يكاد يبين! وإلى كذب هؤلاء الكافرين المحض، وشهادة الزّور الّتي أدلوا بها، أشار الحقّ في قوله عزّ من قائل في سورة النّحل(١٠) : ﴿ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر. لسان الّذي

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٣٧

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٣٧

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٨/١٣٧

(٤) الجلالين

(٥) تفسير الطّبري ١٨/١٣٧

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سطر» ١/٣٠٦

(٧) الجلالين

(٨) تفسير الطّبري ١٨/١٣٨

(٩) تفسير الطّبري ١٨/١٣٨

(١٠) الآية ١٠٣

يُلْحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين﴾ إنّ لسان الّذي يميلون إليه وينحرفون نحوه ثمرةً لاعوجاج فطرهم ويزعمون أنّه يعلّم محمّداً ﷺ القرآن الكريم، إنّ لسانه أعجميّ وهذا القرآن الكريم لسانٌ عربيٌّ ذوبيانٍ وفصاحة.

لقد جاء الّذين كفروا بالفعل ظلماً بزعمهم أنّ محمّداً ﷺ اختلق القرآن الكريم. لقد ظلموا النّبيّ ﷺ الّذي نزّل الله تعالى عليه الفرقان، وظلموا أنفسهم بارتكابهم هذا الزّعم الخطير. كما جاء هؤلاء الكافرون زوراً وباطلاً بزعمهم أنّ النّبيّ ﷺ أعانه آخرون على افتراء القرآن الكريم. إنّ القوم بمثابة من أدلى بشهادة الزّور، وزيّن الباطل، وحسّن القبيح، عن عمدٍ وسبق إصرار.

وقال الكافرون كذلك إنّ القرآن الكريم أساطير الأوّلين وأكاذيبهم وأحاديثهم طلب محمّدٌ أن تُكْتَبَ له فهي تُملَى عليه بُكْرةً وأصيلا، وتُقْرأ عليه صباحاً وعشيّا. وهذان الوقتان من أنسب الأوقات في مكّة المكرّمة للتّأليف. إنّ الكافرين يحاولون بكلّ الوسائل إلصاق تهمهم.

ويأمر الحقّ جلّ وعلا محمّداً ﷺ أن يقول ويعلن على رؤوس الأشهاد: لقد أَنْزَلَ القرآنَ الكريم اللهُ تعالى الّذي يعلم السّرّ والغيب في السّماوات والأرض. وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : إنّ في هذا الكتاب العزيز من الأسرار الكثيرة ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى الّذي يعلم السّرّ والغيب في السّماوات والأرض. إنّ البشريّة كما أنّها لا تعلم إلاّ القليل من أسرار السّماوات والأرض هي كذلك لا تعلم من أسرار هذا الكتاب العزيز إلاّ القليل. وكما يَرَى البشر آيات الله تعالى في الآفاق وفي أنفسهم بإذن الله تعالى، يَرَوْنَ بإذن الله تعالى آيات هذا الكتاب العزيز البيّنات، ومعجزاته الباهرات، إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها.

وتختم آخر الآيات الكريمات بالقول : ﴿إنّه كان غفوراً رحيما﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى كان دائماً وأبداً غفوراً ساتراً ذنوب عباده إذا استغفروا وتابوا توبةً نصوحاً، رحيماً بهم لا يعاجلهم بالعقوبة بل يمهلهم ويرشدهم إلى التّوبة ويتفضّل

بقبولها ويشملهم برحمته عزّ وجلّ الواسعة.

ومن البيّن أنّ القـرآن الكريم هو محور اتّهامات كفّار قريـش في هذا القسم. أمّا الاتّهامات في القسم التّالي فإنّها تتّجه إلى شخص المصطفى ﷺ.

(٢)
(اعتراضاتٌ للكافرين وتفنيدٌ لها، وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين)
الآيات (٧ ـ ٢٠)

وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ
لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ
إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ
الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾

لولا : هلاّ(١).

نذيراً : منذراً للنّاس مصدّقاً له على ما يقول(٢).

إن تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً : ما تتّبعون إلاّ رجلاً مخدوعاً مغلوباً على عقله(٣).

فلا يستطيعون سبيلا : فلا يجدون سبيلاً إلى الحقّ(٤).

ويجعل لك قصورا : عن مجاهد، كانت قريش ترى البيت من الحجارة قصراً، كائناً ما كان(٥).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٨

(٣) الجلالين

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٩

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣٩

بعد أن كان القرآن الكريم في القسم السّابق محور اتّهام كفّار قريش، أصبح شخص المصطفى ﷺ هو محور اتّهامهم في هذا القسم التّالي. إنّ كفّار قريش بعد أن قالوا عن القرآن الكريم ما شاءوا من هراء، قالوا هنا عن النّبيّ ﷺ فيما قالوا: ما لهذا الرّسول الّذي يزعم أنّ الله تعالى قد أرسله يأكل الطّعام كما يأكل البشر، ويخضع لضرورات الطّعام من الذّهاب إلى الخائط كسائر البشر، والمفروض في الرّسول أن يكون واحداً من الملائكة الّذين لا يأكلون الطّعام أصلا. ومال هذا الرّسول يمشي في الأسواق يبتغي من فضل الله تعالى كسائر البشر. إن لم يكن الرّسول مَلَكاً من الملائكة فلا أقلّ من أن ينزل إليه ملكٌ يصدّقه ويشهد أنّه رسول ربّ العالمين. هلاّ أُنْزِل إلى محمّد مَلَكٌ يصدّقه ويكون معه نذيراً. ولمّا كان المفروض في الرّسول أن يكون عظيماً في مدينته، وكان الثّراء دليل العظمة حسب فهمهم، فهلاّ أُلْقي إلى محمّد كنزٌ من ذهبٍ وفضّةٍ ينفق منهما، أو تكون له حديقةٌ يأكل من ثمارها وبالتّالي لا يضطرّ للمشي في الأسواق طلباً للرّزق. وقال كفّار قريش الظّالمون: ما تتّبعون أيّها النّاس إلاّ رجلاً مسحوراً مغلوباً على قواه العقليّة بقوىً خفيّة شرّيرة، لذا هو يهرف بما لا يعرف ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾.

ويبادر السّياق إلى الرّدّ فوراً على اتّهام المصطفى ﷺ بأنّ مثله مثل المسحور، وذلك في الآية الكريمة التّالية. قال تعالى ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ إنّ كفّار قريش إذا كانوا قد اتّهموا المصطفى ﷺ هنا بأنّه رجلٌ مسحور، فإنّهم اتّهموه كذلك بأنّ مَثَلَه مَثَلُ السّاحر والكاهن والشّاعر والكاذب والمجنون، إضافةً إلى كون مثله مثل الرّجل المسحور. إن مجيء لفظ الأمثال في صيغة الجمع يوحي بأنّهم يجعلون مَثَلَه عليه الصّلاة والسّلام مَثَلَ الشّخص غير الموثوق به بسبب السّحر والكهانة وقول الشّعر والكذب والجنون، وما إلى ذلك. إنّ كفّار قريش ظالمون للنّبيّ ﷺ ولأنفسهم، متقلّبون غير مستقرّين على صفةٍ في حقّه عليه الصّلاة والسّلام، ومن ثمّ هم قد ضلّوا عن الصّراط

المستقيم، ولا يستطيعون طريقاً إلى الهدى، ولا يجدون سبيلاً إلى الحقّ.

والآية الكريمة التّالية العاشرة تردّ على اعتراضهم على فقر النّبيّ ﷺ واقتراحهم أن ينزل إليه كنزٌ أو أن تكون له جنّةٌ يأكل منها. إنّ الآية الكريمة تقول: تعاظم خير الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك الّذي اقترحه الكفّار لك من نزول الكنز أو وجود الجنّة أو الحديقة كيلا تضطرّ للعمل. إنّ الله تعالى لو شاء لجعل لك جنّاتٍ تجري من تحت أصول شجرها الأنهار، وجعل لك قصوراً مبنية بالحجارة ومزخرفة، ولكنّ هذه الحياة الدّنيا أهون شأنا.

وجزمت جملة : ﴿ويجعل﴾ عطفاً على موضع جملة جواب الشّرط المجزومة أساساً. والتّقدير : وإن يشأ يجعل لك قصورا(١).

وهكذا نكون هنا أمام أربعة اعتراضات للكافرين واقتراحات.

الأوّل والثّاني الاعتراض على الرّسول ﷺ أن يأكل الطّعام أو أن يمشي في الأسواق، وبناءً على ذلك هلاّ أُنْزِل إليه كنزٌ أو كانت له جنّة يأكل منها. ويأتي الرّدّ على هذين الاعتراضين في الآية الكريمة العاشرة هذه، وكذلك في الآية الكريمة العشرين. قال تعالى : ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق﴾.

والاعتراض الثّالث : ما دام الرّسول واحداً من البشر وليس من الملائكة فلا أقلّ من أن ينزل إليه ملكٌ يصدّقه ويشهد له. : ﴿لولا أنزل إليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا﴾ وهذا الاعتزاض يكون الرّدّ عليه بطريقٍ غير مباشر في أوّل الجزء التّاسع عشر في قول الحقّ جلّ وعلا في الآيتين الكريمتين الحادية والعشرين والثّانية والعشرين. قال عزّ من قائل : ﴿وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا. لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذٍ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً﴾.

والاعتراض الرّابع : قول الظّالمين للمؤمنين ما تتّبعون إلاّ رجلاً مسحوراً

(١) انظر هنا البحر المحيط ٦/ ٤٨٤ والكشّاف ٢/ ٤٠١ والجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٢٧١

مغلوباً على عقـله بقوىً شرّيرة خفيّة. وإنّ هذا الاتّهام واتّهامـهم له ﷺ بأنّ مثله مثل السّاحـر والكاهن والشاعر والكـاذب والمجنون وما إلى ذلك يكون عـليه الرّدّ فوراً في الآية الكريمة الـتّالية مباشرة، قال عزّ من قائل : ﴿انـظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا﴾.

وهكذا يكون الرّدّ على الفور أحياناً، وعلى التّراخي أحياناً.

وبشأن عرض القرآن الـكريم اعتراضات الخصوم وافتراءاتهم هـو يعرضها في أسلوب القرآن الـكريم المعجز. وفي هذه الطّـريقة من العرض للاعتـراضات غاية الإنصاف للخصم. إنّ العرض للاعتراض يرضى كلّ عقل ويشبع كلّ نفس.

وبشأن دحض القرآن الـكريم للافتراءات والرّدّ على الاعتراضـات يعيد القرآن الكـريم ترتيبـها في أسلـوب القرآن الكـريم المعجـز. ويمكن القـول بشأن ترتـيب الدّحض لـلافتراءات والرّدّ عـلى الاعتراضات، إنّ هـذا التّرتيـب يخضع لحـكمة مفادها التّحوّل المطّرد من سهل الاعتـراضات وساذجها، إلى ما احتاج من الخصوم إلى شيءٍ من إعمال الفكر وإجهاد العقل.

ويتحوّل السّياق إلى تقرير الباعث للخصوم على سرد الاعتراضات وعقابهم.

بَلْ

كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ
أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

وأعتدنا : وأعددنا(١).

سعيرا : ناراً تسعر عليهم وتتّقد(٢).

تغيُّظاً : التّغيّظ هو إظهار الغيظ. وقد يكون ذلك مع صوت مسموعٍ كما قال: ﴿سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً﴾ والغيظ أشدّ غضب، وهو الحرارة الّتي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه(٣) إذا رأتهم تغيظّت عليهم، وذلك أن تغلي وتفور. يقال : فلانٌ تغيّظ على فلان وذلك إذْ غضب عليه فغلى صدره من الغضب عليه وتبيّن في كلامه(٤).

وزفيرا : وهو صوتها(٥) والزّفير تردّد النَّفَس حتّى تنتفخ الضّلوع منه(٦).

مقرّنين : قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال(٧).

ثبوراً : هلاكاً وويلاً(٨).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤٠

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤٠

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غيظ» ٢/ ٤٧٧

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤٠

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤٠

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «زفر» ١/ ٢٨١

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤٠

(٨) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ١٤٠، ١٤١

الحقيقة أنّ كفّار مكّة الّذين يهرفون بما لا يعرفون قد كذّبوا بالسّاعة وجحدوا يوم القيامة. وقد أعدّ الله تعالى لمن كذّب بالسّاعة وجحد يوم القيامة ناراً متأجّجةً توقد عليهم. وإذا رأتهم النّار من مكانٍ بعيدٍ سمعوا صوت غيظها وحنقها الشّديد عليهم، وسمعوا صوت زفيرها وتتابع نفسها فعل المغيظ المحنق على عدوّه. وإذا أُلْقي أولئك الكافرون من نار جهنّم في مكانٍ ضيّقٍ مُعَدٍّ لهم خاصٍّ بهم قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال نادوا هنالك بالثّبور والهلاك والويل فقالوا واثبوراه، ووا هلاكاه، ووا ويلاه.

ويقال لهم على سبيل التّبكيت والتّقريع: لا تقولوا مرّةً واحداً واثبوراه ولكن قولوا واثبوراه مرّاتٍ كثيرة. فكما أنّ نداءكم الثّبور مرّةً واحدةً لم ينفعكم، كذلك لا ينفعكم نداء الثّبور مرّاتٍ كثيرة.

قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾

قل يا محمّد لكفّار مكّة ومن شاكلهم: أذلكم العذاب الأليم يوم القيامة والخزي العظيم خيرٌ أم جنّة الخُلْد الّتي وعدها الله تعالى المتّقين. كانت جنّة الخلد جزاءً لهم على صالح أعمالهم ومصيراً لهم يوم يلقون الله تعالى. والجواب بطبيعة الحال معروف. فعليهم أن يعودوا سريعاً إلى الصّراط المستقيم.

إنّ لهم في جنّات النّعيم ما يشاءون ممّا تشتهيه نفوسهم وتتلذّذ به عيونهم، خالدين فيها، لا يخرجون منها ولا يُطْلب منهم أن يخرجوا. إنّ ذلك النّعيم في الجنّة كان على ربّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن وعداً من الله تعالى مفعولاً، وهو لاستحقاق المتّقين له وكونه حقّاً ثابتاً لهم في حكم ما يحقّ للموعود به أن يسأله

ويطالب به، علماً بأنّ الكريم هو الّذي تفضّل به أصلا.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

بورا : هلكى(١).

صرفا : صرف عذاب الله حين نزل بهم عن أنفسهم(٢).

ولا نصرا : ولا نصرها من الله حين عذّبها وعاقبها(٣).

وحين يحشرهم الله تعالى يوم القيامة وبما يعبدون من دون الله تعالى من الملائكة والجنّ وعيسى وعزير فيقول الله تعالى لهؤلاء المعبودين: أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء عن سواء السّبيل أم هم الّذين ضلّوا من ذوات أنفسهم. قالوا: تنزيهاً لك يا ربّنا عمّا ألحق بك الظّالمون ممّا لا يليق بجلالك من الولد والشريك، ما كان ينبغي ولا يصحّ لنا أن نتّخذ من دونك من شركاء وأنداد. ولكن متّعتهم يا ربّنا ومتّعت آباءهم حتّى نسوا القرآن الكريم وكلّ ما يذكّرهم بيوم القيامة وكانوا قوماً هَلْكى لأنّهم آثروا العاجلة على الآجلة.

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٤٢

(٢) تفسير الطّبري ١٨/١٤٣

(٣) تفسير الطّبري ١٨/١٤٣

أما وقد أعلن المعبودون ما الله تعالى به عليم وظهرت براءتهم وضلال العابدين فإنّ العابدين يقال لهم على رؤوس الأشهاد: لقد كذّبكم المعبودون بما تقولون عنهم بأنّهم أضلّوكم وكانوا راضين عن عبادتكم لهم. إنّكم لن تستطيعوا أن تصرفوا عذاب الله تعالى عنكم، ولا أن تنصروا أنفسكم من الله تعالى حين أراد عذابكم وعقابكم.

إنّه من يظلم منكم أيّها النّاس ويشرك مع الله تعالى يذقه الله تعالى عذاباً كبيراً وأليما، لأنّ الشّرك هو الذّنب الوحيد الّذي لا يغفره الله تعالى.

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

في هذه الآية الكريمة الأخيرة من هذا القسم ومن الجزء الثّامن عشر يكون الرّدّ على الاعتراضين الأوّل والثّاني اللّذين جاءا في الآيتين الكريمتين الأوليين من القسم. قال تعالى: ﴿وقالوا ما لهذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيرا. أو يُلْقَى إليه كنزٌ أو تكونُ له جنّةٌ يأكل منها﴾ وسبق أن ردّت الآية الكريمة العاشرة من السّورة الكريمة على اعتراضهم على فقر النّبيّ ﷺ واقتراحهم أن ينزل إليه كنزٌ أو أن تكون له جنّةٌ يأكل منها. قال تعالى: ﴿تبارك الّذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا﴾.

والآية الكريمة الأخيرة في القسم وفي الجزء تقول: وما أرسلنا قبلك يا محمّد من المرسلين إلاّ إنّهم ليأكلون الطّعام ويضطرّون للذّهاب إلى الغائط للتخلّص من فضلات الطّعام كسائر البشر، وكذلك يمشون في الأسواق طلباً للرّزق. جاء في

سورة الأنبياء تأكيداً لبشريّة الرّسل قول الحقّ جلّ وعلا(١) : ﴿وما أرسلنا قبلك إلاّ رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطّعام وما كانوا خالدين﴾.

وبقصد تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والمؤمنين تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة والجلال قد اقتضت حكمته أن يجعل بعضنا فتنةً لبعض واختباراً وابتلاءً فعلينا بالصبر. إنّ كلّ ذى نعمة فتنةٌ لغير ذى النّعمة، وإنّ المؤمن فتنةٌ للكافر، وإنّ الصّحيح فتنةٌ للمريض، وإنّ الذّكيّ فتنةٌ للغبيّ، وإنّ النّابه فتنةٌ للخامل. وهكذا. إنّ الآخر يريد أن يكون مثل الأوّل بل خيراً منه. والآية الكريمة في سؤالها واستفهامها : ﴿أتصبرون﴾ تفيد الأمر. والمعنى : اصبروا. وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿وكان ربّك بصيرا﴾ والمعنى وكان ربّك يا محمّد ويا أيّها المؤمن بصيراً بكلّ ما يفعل النّاس ومجازياً لهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ. وما أجمل الجناس غير التّام في القول : ﴿أتصبرون؟ وكان ربّك بصيرا﴾.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

مكّة المكرّمة

مساء يوم الثّلاثاء ٦/ ١٠/ ١٤١٨هـ

الموافق ٣/ ٢/ ١٩٩٨م

---

(١) سورة الأنبياء ٧ و٨.

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الآيات	رقم الصفحة
المقدّمة		٧
أوّلاً: سورة المؤمنون		٩
بين يدي التّفسير		١٩
التّفسير		٣٧ ـ ١٣٠
١ـ نعوت المؤمنين المفلحين وثوابهم	١ ـ ١١	٣٩
٢ـ الله تعالى خلقنا ثمّ يميتنا ثم يبعثنا للحساب والجزاء	١٢ ـ ١٦	٤٩
٣ـ سخّر الله تعالى لنا ما في السّماوات والأرض لنعتبر.....	١٧ ـ ٢٢	٥٥
٤ـ أرسل الله تعالى رسله بدين التّوحيد.....	٢٣ ـ ٥٠	٦٥
٥ـ الرّسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطّيّبات وعمل الصّالحات، وثواب المسارعين في الخيرات وعقاب المستكبرين.....	٥١ ـ ٦٧	٨٥
٦ـ بعض مظاهر عمى بصائر الكافرين وعذاب الله تعالى لهم.....	٦٨ ـ ٧٧	٩٩
٧ـ المشركون يصرّون على كفران النّعم وإنكار البعث وتكذيب الآيات.....	٧٨ ـ ٩٢	١٠٧
٨ـ إنذارٌ للكافرين بالعذاب الأليم، وتبشيرٌ للمؤمنين بالنّعيم المقيم	٩٣ ـ ١١٨	١١٩

ثانياً: سورة النور		١٣١
بين يدي التّفسير		١٤٣
التّفسير		١٦٧ ـ ٢٩٨
١ـ من فرائض السّورة حَدُّ الزّانيين غير المتزوّجين وحدّ القذف، وكيفيّة لِعان الزّوجين.....	١ ـ ١٠	١٦٩
٢ـ دروسٌ من حادثة الإفك.....	١١ ـ ٢٠	١٨٩
٣ـ آياتٌ تعقيبيّةٌ على حادثة الإفك.....	٢١ ـ ٢٦	٢٠٧
٤ـ دروسٌ قرآنيّةٌ في الطّهر والعفاف.....	٢٧ ـ ٣٤	٢١٧
٥ـ مَثَلٌ نوراني للمؤمنين، ومَثَلٌ ناريٌّ للكافرين المبتدعين، ومَثَلٌ مائيٌّ للكافرين المقلّدين.....	٣٥ ـ ٤٠	٢٣٩
٦ـ يسبّح لله تعالى كلّ المخلوقات، وذكر أصنافٍ من المخلوقات دليل الملك والقدرة.....	٤١ ـ ٤٦	٢٦٧
٧ـ المنافقون والكافرون يعصون الله ورسوله فلهم ذلّ الأولى والآخرة، والمؤمنون يطيعون الله ورسوله فلهم عزّ الأولى والآخرة.....	٤٧ ـ ٥٧	٢٧٧
٨ـ من آداب أنواعٍ من الاستئذان.....	٥٨ ـ ٦٤	٢٨٧
ثالثاً: سورة الفرقان حتّى نهاية الجزء الثّامن عشر.		٢٩٩
بين يدي التّفسير		٣٠٥
التّفسير		٣١٣ ـ ٣٣٥
١ـ الله تعالى هو الّذي نزّل الفرقان على عبده، وهو خالق كلّ شيء، فينبغي إفراده بالعبادة...	١ ـ ٦	٣١٥
٢ـ اعتراضاتٌ للكافرين وتفنيدٌ لها، وثواب المؤمنين وعقاب الكافرين.....	٧ ـ ٢٠	٣٢٥
فهرست الموضوعات		٣٣٦